بداة رحّل ومستقرون في لواء دير الزور

للأستاذ محمود حريتاني

امتد لواء دير الزور . أواخر القرن الماضي ، واوائل القرن الحالي شرقا حتى ولاية بغداد والموصل والى الجنوب حتى اراضي ولاية دمشق والاردن ، ثم اتصل بحدود العراق في قضاء عانه من أعمال بغداد وغربا حتى اراضي حماه وحمص . والى الشمال اتصل بأراضي ديار بكر ولوائي ماردين وأورفه وحلب .

يشقه الفرات الى شطرين ، فما كان عن يمينه يسمى (شاميه) ، وما كان عن يساره يسمى (جزيره) .

هذا اللواء الواسع ضم ثروة بشرية كبيرة ، بدوا رحلا ما عرفوا الاستقرار يوما في ارض ما ، وآخرين نصف مستقرين يرحلون في أواخر فصل الربيع الى السهول والبادية ، واخيرا مستقرين قلائل كانوا يعيشون في بلدة دير الزور ومراكز الاقضية التابعة لها : البوكمال ، الميادين ، الرقة . وكان لكل هؤلاء صلات كبيرة مع القبائل في العراق والاردن .

وقد عملت الدولة العثمانية في عام ١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ م على ترغيب القبائل بالاستقرار ، فقسمت الوديان والسهول على ضفاف الفرات بين القبائل التي ترتادها ، فكان كل من راجعها من تلك القبائل تعطيه مقدارا من الارض ، وتعطيه به سندا خاقانيا ، فمنهم من تقطعه بكرة ، ومنهم من تقطعه بكرتين او اكثر على حسب عدد اهله . والبكرة تساوي دونما ، وكان لكل واحد من هؤلاء الزراع أن يضم الى ارضه دونمات عديدة .

وكان أهم هذه القبائل في العهد العثماني : البو شعبان ، والبو رحمة ، والعكيدات ، والبكارة ، اضافة الى شمر والعنزة . وعشيرة الشعار ، وقد عرفت دير الزور ايضا ب (دير الشعار) نسبة اليها .

ولقد كانت دير الزور منذ أوائل القرن التاسع عشر سوقا للبدو الذين يرتادون المنطقة حتى ان قسما صغيرا منهم استقر فيها ، مؤسسا تجمعا سكنيا بسيطا ، معرضا الى هجمات البدو المجاورين وغزوهم . وقد استفاد هؤلاء المستقرون من وجود (الحويجه) وسط الفرات فزرعوها ، وكانت المياه المحيطة بهم حماية لهم .

وفي عام ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م اضافة الى السلك البرقي بين حلب ودير الزور ، تم كما يقول المؤرخ الغزي (تأليف الكتائب الحميدية من عشائر البادية مضاهاة لعساكر القوزاق عند الدولة الروسية . لانهم من عشائر بواديها) . كما في عام ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م كانت الدولة العثمانية اوجدت مركزا حكوميا في دير الزور بمساعي احد الولاة الباشاوات الاتراك ، وبذلك حصل سكان دير الزور على حماية نسبية لهم من البدو المجاورين الذين تراجعوا عن الدير . فتم بذلك استقرار المزارعين .

كما قامت الدولة العثمانية ، محاولة منها لكسب ود رؤساء القبائل ، بتعليم اولادهم في مدارس خاصة في استانبول ، غير ان هذه المدارس لم تكن تحضرهم فعلا القيادة قبائلهم بقدر ما كانت تجعل منهم رهائن لديها للسيطرة على آبائهم ، وتسيرهم وفق مشيئتها .

اما في اوائل القرن العشرين ، وخلال الانتداب الفرنسي ، فقد استقر في مناطق دير الزور : الفدعان وشمر والعكيدات والبكارة ، خاصة ، وان مدينة دير الزور تضاعف عدد سكانها ، فسكنها في عام ١٩٢٦ عشرون الف نسمة ، واصبحت مركزا تجاريا هاما لكونها عقدة مواصلات بين دمشق والموصل ، وبين حلب وبغداد ..

وعرف ، من جهة اخرى ، الفرنسيون ان وادي الفرات يلعب دورا كبيرا في توطين القبائل فزادوا من الحماية لهم ، وبذلك زادت رقعة الاراضي المزروعة ، والتبادل التجاري وبالتالي غنى المستقرين ، وقد استقر العكيدات على الضفة اليمنى من التبني الى البوكمال ، وعلى الضفة اليسرى من البوكمال الى البصيرة ، كما استقروا على ضفتي الخابور حتى تلال الشيخ حسن والشيخ حمد شمالي الصور .

لا نستطيع القول بأن هذه القبائل قد اصبحت مستقرة تماما ، فهي منذ استقرارها وحتى وقت قريب تمارس التنقل خلال فصل الصيف ، وان قسما كبيرا منها يرحل مع بدء الربيع الى البادية طلبا للمرعى ، ويعود مع اوائل الشتاء .

ولنتساءل اليوم : هل بقيت تقاليد هؤلاء المواطنين بين امس واليوم هي نفسها ؟ ولماذا ؟

لن نتعرض لتقاليدهم كلها وانما سنأخذ ناحيتين منها : المراة والعدالة .

فالمراة في القبيلة منذ الثلاثينات ، في مهرها وزواجها ، وتعدده ، وطلاقها وحريتها ، هل هي نفسها في الثمانينات في دير الزور وباديتها

لنستمع الى هذه الرواية :

(امراة احد رؤساء القبائل البدوية رغبت بسكنى خيمة بيضاء ، وليس من عادة تلك القبيلة باستعمالها لان الخيم البيضاء تستعمل لدى البدو نصف المستقرين مثل البوخميس . عملت تلك المراة لتحقيق رغبتها ، فانهت زواجا ثانيا لزوجها بطريقة دراماتيكية ، ثم انهت زواجا ثالثا ، واخيرا لجأت مع اولادها الى البوخميس فتوسط العقلاء ، وعادت شريطة ان تسكن خيمة بيضاء ، وقبل الزوج ، ولكن اخيرا لم تشرع الخيمة البيضاء ابدا في مضرب تلك القبيلة ، وخيامها كلها سوداء ...)

اما العدالة ، والتي كان يمارسها رؤساء القبائل بموجب قوانينهم الخاصة التي تقوم على العرف والعادة ، فقد كانت منظمة ، تضم الحكم والعرفة واليمين ، ولها مراسيم خاصة ، ويقبل بها الافراد والجماعات على حد سواء وبحث هذا الامر فيه من المتعة والاهمية الشيء الكثير ، وعلى سبيل المثال ، فان اليمين الكاذبة شيء نادر ، ولنستمع الى قوة العدالة في بادية اللواء بالقصة التالية :

(اتهم احد الباعة المتجولين ، فلانا بدويا قد سرق صحنا يساوي ثمنه ثلاثة ليرات ذهبا . كلف البدوي ، وكان شخصية معروفة في قبيلته باليمين فحلفها ، ومضى على ذلك سنتان . في نهايتها دخل فلان هذا مسرعا على موظف العشائر في أبو كمال ، ورمى على طاولته بالليرات الذهبية الثلاث صائحا : هذا هو ثمن الصحن ، معترفا بانه فعلا سرق الصحن ، وحلف يمينا كاذبة ، واليوم صباحا حين كانت ابنته البكر — ووصفها بانها جوهرة القبيلة ، وسعادة بيته — تغسل الصحن على شاطىء الفرات ، انزلق من يديها ، حاولت استعادته ، فانزلقت في النهر وغرقت ، فعرف ان هذا هو العقاب ، فركبت فرسي ، ولم اتوقف الا عندكم . ولو نفقت الفرس ، هاكم الليرات ، اريدكم ان تأخذوها قبل ان تدفن ابنتي ، وترسلوها الى البائع المتجول ، وقبل ان يصيبني مكروه آخر في نفسي واهلي ...)